الحشوية والوهابية

قلما قام بين المصلحين احدٌ بفكرة اصلاحية او مشروع جديد ولم يقم في وجههِ من ابناء جلدتهِ مناهضٌ يرمي للفتنة كل مناص فيتخذهُ سبَّةً يتقوَّل عليهِ مختلق الاقاويل وينقل عنهُ مختلف الاحاديث مما هو ليس من الحقيقة في شيء . فان كان من اهل الحكم والسداد وُصم بخرق في الرأي او من اولي الخير والصلاح رمي بشبهةٍ في الدين . او كان من حملة العلم الصحيح غمطوا من قدرهِ ولم ينصفوهُ وربما ألبوا عليهِ طغمة الجهل وزعانف القوم فيذهبون بارائهِ مذاهب شتى وقد يؤلبونهُ في الردى فيجنون على العلم والدين جناية تدور مع الأحقاب كما وقع ذلك لكثيرٍ من مشاهير المشارقة والمغاربة

على حين ان ذلك المصلح لم يأتِ امرًا ادًّا يأباهُ العقل والدين وما ذنبهُ سوى انهُ اتى بما لا عهد لابناء اوسطهِ بهِ او لم يجدوا عليهِ آباءهم . وقد سمَّى حجة الاسلام الغزالي امثال هؤلاء المناهضين حشويَّة . وهم اليوم ضروب فمنهم حشويَّة الدين وحشويَّة العلم وحشوية السياسة

واشدُّ ما لقي المصلحون من شيوخ السوء حشويَّة الدين الجامدين في سبيل الدعوة الى الحق وما نالهم من النكبات ماديًّا وادبيًّا . وسعيا يحاول هؤلاء عرقلة مساعي اولئك او اضطهادهم وظلمهم بامنيتهم في بعض الاحايين فانهم ليحاولون المستحيل في الضغط على تلك الموهبة الفكريَّة التي امتاز بها اولئك المصلحون عن غيرهم من البشر — الميزة التي ولدت لهم اعداء الداء يحسدونهم في السراء والضراء ويرمونهم بما هم منهُ براء كما هو الحال الآن سيء حشويَّة الدماشقة ورميهم علماءهم الاطهار واحرارهم الاخيار بالوهبنة تارةً والزندقة تارةً اخرى

ألا وان التاريخ يعيد نفسهُ فقد مثَّل لنا رمي هؤلاء الحشويَّة للمصلحين بالوهابيَّة رمي الروافض لاهل السنة بالنواصب وتلقيب القدرية لهم بالمجبرة وتسمية الجهميَّة لهم بالمجسمة المشبهة . على ان هذه الاقاويل لا تغمط من قدرهم ولا تحطُّ من عظمهم شيئًا بل على العكس من ذلك فانها قد تكون واسطة لرفعة شأنهم وتالق شهرتهم كما قال الغزالي : " واستحقر من لا يحسدك ولا يقذف واستصغر من يكفرك او الضلالك لا يعرف فاي داعٍ اكمل واعقل من سيد المرسلين (صلعم) وقد قالوا انهُ مجنون من المجانين واي كلام اجمل واصدق من كلام رب العالمين وقد قالوا انهُ اساطير الاولين . . . " ومن ذلك قول ابن حزم : " ومن حقق النظر وراض نفسهُ على السكون الى الحقائق وان آلمتها في اول صدمة كان اغلباطهُ

بذم الناس اياهُ اشد واكثر من اغتباطهِ بمدحهم اياهُ . . . »

بيد اني مع كل هذا وذاك اراني في حاجة شديدة تدفعني الى ان ألفت انظار الجمهور الى انهُ لا يسوغ الاعتماد في مثل هذه الحال على نقول الخراصين من اولئك الطغام الحشوية انصار الحزب القديم او الاخلاد الى الجمود على ما نقل عنهم هؤلاء ومن لفَّ لفهم من الغاغة . اذ لو اخذنا القول على عواهنهِ كما يلقى على مسامعنا جزافاً دون بحث ولا نظر لاختلط الحابل بالنابل والعالم بالجاهل ولم نعد نميز بين من كان في قومهِ مثال الكمال فاتى باعمال عظيمة واحسن صنعاً وبين من كان شرَّ مجسماً فساث في الارض فساداً وساء عملاً

والوقوف على جلية الامر يجب ان تقلب صفحات التاريخ ونتظر ما أثر عنهم من نثي وقول وما ابقوا من عمل . ولا يكفي ذلك لمعرفة حقيقتهم تمام المعرفة بل يجب ان نستقرئ حركاتهم ايام حياتهم استقراء عملياً دقيقاً ثم بعد ذلك يحول لنا ان نحكم عليهم بعد ان كنا تصوَّرناهم حق التصوُّر فان وجدناهم طبق ما يقال عنهم قبلناهُ وحولنا مجرى افكارنا والاَّ رفضناهُ باخمص اقدامنا وضربنا بهِ عرض الحائط

ومما يجري هذا المجرى وتجدر النتابة بهِ واعطائهِ جانباً من التمحيص والتدقيق مسألة (الوهابية) التي طار في عامة الاقطار نبأها واستلمت زمامها (الحشرية) فاصبحت تديرها ما شاءت وشاء لها الهوى حتى غمض الحق على طالبيهِ فذهب بين جهل شيوخ السوء واغراض اعداء التجديد . وما كان احرى بهؤلاء ان لا يخوضوا في هذه المسألة فقد آل نبأ الوهابية الى ان صار سمراً وفكاهات ومن ذلك ان كل من روى من المدرسين او الخطباء احاديث في الشرك جلياً او خفياً يتناجون بانهُ يرمز للوهبنة ويسمونهُ (وهابياً) وهكذا اشاعتهم عن غرف القراءة العامة التي أسست في حاضرتنا حديثاً وتوهت بها جرائد سورية وبيروت بانها منتدى الوهابية . ومن النكت الغريبة ان احد الشيوخ عندهُ لوح مكتوب عليهِ كلمة (يا وهاب) وعليهِ أطار نفيس فقيل عنهُ انهُ لم يؤثر هذه القطعة الاَّ لانهُ مغرىً بالوهابية ومغرم . وكذلك من كان اسمهُ (عبد الوهاب) صار يقال لهُ ان اباهُ كان وهابياً حتى أثر تسمية ابنهِ باسم زعيم تلك الفئة مع ان زعيمهم يدعى " محمد بن عبد الوهاب " فكان الاجدر تسميتهم (محمدية) . وهكذا قل عن تلقيبهم الادارم والمقطم واشباههما بانها جرائد الوهابية . ومثلهُ تشهيرهم بان كل من هاجر من وجه الاستبداد نازحاً من بلاده هو من الوهابية وكذلك ابطال الحرية وخطباء الدستور مما يضحك الثكلى ويبكي العاقل

وهكذا الحال الآن فلا تسمع في المنتديات عامة كانت او خاصة الاَّ الوهابية والوهبنة

لكل من انكر منكرًا او ناقش في امر او بحث في مسئلة . وقد عرف الجميع سر المسئلة بل انقلب على القائمين على الوهابية الأمر وانعكست القضية اذ زرعوا في اذهان العامة من الرجال حتى النساء متفرداتهم وما يؤثر عنهم واصبح كثير يدقق في تلك المسائل ويبحث بها ويسائل عنها انبهاء المتورين ليصل الى اصلها . وكثيرٌ من اولي السذاجة والفطرة توعين بفضل تلك الثورة التي هاج ثائرها منذ عهد غير بعيد

ولقد كان بعض الفلاسفة يسرجدًا باشهار بعض المسائل ولفظ العامة بها او اضطهاد الحكومة لاجلها فيقول : " لا انجع من ذلك لاشهار امرها وادخالها الى كل اذن ودار " وكان يقول : " لو شعر الثائرون في وجه امر والقائمون عليه ماذا ينتج ثوبرم وهياجهم من رد الفعل وانعكاس الامر عليهم لقبعوا رؤسهم ولم ينبسوا ببنت شفة "

***

قالوا : " الحقيقة بنت البحث " نعم . وهذا ما حدا بي الى ان آتي في هذه المجالة على نتف من حقيقة امر هؤلاء الوهابية ليتبين الرشد من الغي ويعلم اولئك المرهون ان تحقق افسارًا وان التاريخ لا يترك كبيرةً ولا صغيرةً الاَّ احصاها . وبعد فمن هم اولئك الذين يُفترى عليهم ما يفترى ؟

هم اولئك الطائفة الحنابلة التي تتذهب بمذهب الامام احمد وعقيدته لم يخرجوا عنها قيد شبر وهم يتبرأون من الشرك الجليّ والخفيّ الذي حذر منهُ النبي (صلعم) وهم يعتقدون ان الله سبحانهُ اقرب الى الانسان من حبل الوريد وانهُ على كل شيء شهيد وانهُ امر ان يدعى وجدهُ كما جاء في الاية : " قل ادعوا الله او ادعوا الرحمن " وفي أخرى " ادعوني استجب لكم " وانهُ يتوسل اليهِ باسمائهِ الحسنى وصفاتهِ العليا

هم اولئك الذين يقدمون احاديث النبي (صلعم) وآثار اصحابهِ على غيرها ومذهبهم في صفاتهِ تعالى مذهب السلف لا تشبيه ولا تعطيل " ليس كمثلهِ شيء وهو السميع البصير "

هم اولئك الذين على مذهب اهل السنة والجماعة (السلف) يقتفون المعتزلة والخوارج وكل فرقة ليست على مشرب السلف الصالح ولا همَّ لعلمائهم الاَّ البحث في الاصول والفروع ولا لعلمائهم الاَّ السعي وراء الاكتساب والاتجار وهم لا يأكلون لحم اخ بغيبة ولا يمشون بنميمة ولا تبدر على أسلات السنتهم بوادر القذف ولا يلسنون لانفسهم العنان فينهمكون في الفحش واللوبقات وهم ليسوا بثعالب روّاغة يمكرون او يخدعون وهم احرارٌ جادون في طلب العلم اينما حلوا وحيثما وجدوا

وانك لا تراهم مرّة لاعبين او عابثين وهم يفرون من البدع فرارهم من المجذوم وبالجملة فماذا يقال عن اخلاص قوم عُرفوا بالتمسك في الاسلام وهم في مقدمة كل طوائفه ايماناً وايقاناً . ويرحم الله احمد الافاضل حيث قال : " لو تجسم الاسلام بانسان لكان اهل نجد رأسهُ "

هذا ما نعرف عنهم كما دلتنا عليهم مصنفاتهم التي ألفها اهل الراي الراجح والعلم الصحيح منهم كما رأينا ذلك في غير واحد من التواريخ التي تبين سيرتهم احسن تبيان كتاريخ (الجبرتي) وغيره . واذا لم تكن هذه الطائفة كما ذكرنا فليأتنا المعاندون ببرهان من كتبهم يناقض ما نسطرهُ هنا او فليدلوا بحجة ما تخالف ما نقولهُ ان كانوا من الصادقين

ليت شعري بما يجيب ذلك المعاند الذي يرميهم بانواع الكفر والضلال اذا قلت : بانهم يقيمون الصلوات الخمس باوقاتها ويؤدون زكاة اموالهم بانصبائها وانهم يصومون شهر رمضان ويزورون البيت الحرام على الطريقة المأثورة ما استطاعوا الى ذلك سبيلاً

ماذا يكون جوابهُ اذا رفعت عقيرتي قائلاً انهم ثلة يكدون ويكدحون في جهاد هذه الحياة ويفارقون الاهل والاوطان ابتغاء النفع والانتفاع والكسب من الحلال فيتجرون بالعترد المشروعة ولا يتحيلون لشبهاتها بل ولا يرضون ان يعيشوا عيشة الاذلاء الاتذال كلاً على غيرهم

نحن نسأل ذلك الرجل الذي يرميهم بشبهة في دينهم : هل رأى واحداً منهم في حانات الخمور تملأ معربداً او بين اذرع المومسات ضاحكاً مستبشراً ؟ . . او هل يقدر ان يثبت انهم اكلوا اموال الناس بالباطل واختلسوا المدارس باموالها واوقافها

ولقد علم قيامهم بشعائر الدين في حلهم وترحالهم وتصليهم في ذلك والشروع في معاملاتهم كل من خبرهم كما عرف ذلك منهم معاملوهم من التجار في كل قطر ومصر بيد انهُ انتقد عليهم مسائل اشتهرت ويرى الجمهور فيها نظراً وقد كثرت عليهم الردود لاجلها وربما كان في تلك الردود شيء من الحق ولكن على الباحث ان ينصف . والحق يقال ان زعيمهم الشيخ محمد بن عبد الوهاب لم يأتِ بشيء من عندهِ وانما دعا الى نصوص ظفر بها وعثر عليها وهي لمن تقدمهُ من الائمة المشاهير ممن سبقوا على عصرهِ بنحو ستمائة سنة

ولا ريب ان من تقدمهُ كانوا ائمة مجتهدين عرفهم التاريخ والمجتهد مأجور باتفاق علماء المذاهب على الاطلاق ولا ينكر على امام مجتهد على كل حال

ولها لكلمة ذهبية فاه بها الامام مالك (رضي الله عنهُ) قائلاً : ما منا إلا من ردّ او رُدّ عليهِ الاّ صاحب هذا القبر (يعني النبي صلعم) والحق ضالة كل حكيم المنشودة تؤخذ من

اي وعاء خرجت وعن اي صدر صدرت . وما على الراد الا ان ينبذ الهوى والعصبية وان يقف عند حدود آداب الجدل والمناظرة وينظر في اقوال محاوره نظر المنصف الحكيم وكما يجب ان يراجع الردود يجب عليه ان ينظر في ردود الردود ليزداد بصيرة وعلما ويتجلى له الحق تمام الانجلاء

ولئن كان يؤثر عنهم تنطع وغلو في بعض المسائل فما من احد الا وعُدت عليه هفوات ما خلا المعصومين . والاصل الاصيل هو الاعتصام باصول الايمان وقواعد الايقان . وعلى فرض تنطعهم وغلوهم فهم لم ينفردوا بذلك اذ لم يخل مذهب من متنطعين غالين يرون ما هم عليه صوابا وما لغيرهم خطأ إلا ان كل متنطع في اي مذهب كان اول من يبرؤ منهُ المنصفون المعتدلون من اهل مذهبه فاحر بغيرهم

ويكفي مريد الحق وطالب الانصاف في شأن الوهابية ما كتبهُ شيخ الفقهاء الحنفية بمصر المؤرخ الشهير الامام الجبرتي فليتابعهُ المنصف بدقة وليتأمل ما يقضي به العقلاء وما يحكم به المنصفون . وحرامٌ على من لم يراجع تاريخ الجبرتي في شأنهم ان يبتهم رجما بالغيب وهو مطبوع ومتداول يمكن ان يستشيرهُ هذا البحث منهُ في نحو يوم فليعمل الطالب همتهُ وليتزع عنهُ عصبيتهُ ليرى صدق ذلك الفاضل بقولهِ « لو تجسم الاسلام بانسان الخ . . » ويعلم ان بعض الظن اثم

ما كان الجبرتي وهابيًا ولا نجديًا ولا حنبليًا وانما كان حنفيًا بل مفتي الحنفية في مصر في عهد المرحوم محمد علي باشا الذي حاربهم . ما منع الجبرتي وهو مفتي عاصمة مصر تدر عليه مرتبات محمد علي ان يتكلم بالحق في الوهابية ومحمد علي يحاربهم ما احتفظ عليه بذلك ولا كادهُ ولا اضمر لهُ السوء ولا رمتهُ علماء الازهر بالوهبنة مع انتشار كتابه في ايديهم والشغف بنسخهِ وعدّ الظفر بهِ من اعظم الكنوز العلمية التي تتزين بها المكاتب

لمَ ذلك يا ترى ؟ . .

لان محمد علي عاقل حكيم منصف محب للعلم والحقائق لا يرى ان حربهم الا لامر سياسي وهو الاستعمار وان لا حرب في المسائل الدينية ولان العلماء في الازهر أئمة فضلاء يذعنون للحق وينقادون لهُ وهم يرون أمثال ما يبثهُ الجبرتي عنهم حقائق لا تشوبها شائبة وهم ولا إيهام

وبعد فلسنا نقول ذلك تشيعًا لهم او تحزبًا فان ذلك من شأن المتعصبين الجامدين بل دلالة على مكان المدح وحضرًا من بخس الناس اشياءهم واستبراء للدين من قذف البريء وبهت المؤمن وفي ذلك عبرة لقوم يذكرون

باحث دمشقي